إبليس يعلم... (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال أحمد بن مسكين : ودار السبتُ الثالث وجاءت مجلسي للناس وقد انتظمت حلقتهم ؛ فقام رجل من عُرض المجلس فقال : إن الحسن بن شجاع البلخي تلميذ الامام أحمد بن حنبل (٢) كان منذ قريب يحدثنا بأحاديث عن الشيطان ، حفظنا منها قوله صلى الله عليه وسلم : إن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي أحدُكم بعيره في سفره . وكان الحسن يقول في تأويله : إن شيطان الكافر دَهينٌ سمينٌ كاسٍ ، وشيطان المؤمن مهزول أشعثُ أغبرُ عارٍ . فهل يأكل الشيطان ويدّهن ويلبس ليكون له أن يجوع مع المؤمن ويعرى ويتشعّث ويغبر ؟

قال ابن مسكين : فقلت في نفسي : لا حول ولا قوة إلا بالله ! ما أرى السائل إلا شيطانَ هذا السائل ؛ فان إبليس إذا أراد أن يسخر من العالم ويُسمعه طنزَه وتهكمه (٣) حرّك من يسأله عنه ما هو وكيف هو ؛ كأنما يقول له تنبّه ويحك على معناي فأنت تتكلم وأنا أعمل ، وأنت صورة من الرد عليّ ، ولكني حقيقة من الرد عليك ، وما أنت في محاربتك لي بالوعظ إلا كالذي يريد أن يضرب عنقَ عدوه بمائة اسم وضعت للسيف . .

قال : وكنت قد سمعت خبراً عجيباً عن أبي عامر قبيصة ابن عُقبة الكوفي المحدّث الحافظ الثقة أحد شيوخ أحمد ابن حنبل (٤) ؛ وهو الرجل الصالح العابد الذي كان يقال له (راهب الكوفة) من زهده وعبادته واحتباس نفسه في داخله كأنما جسده جدار بين نفسه وبين الدنيا ، فقلت والله لأغيظن الشيطان بهذا الخبر ، فان أسماء الزهاد والعباد والصالحين هي في تاريخ الشياطين كأسماء المواقع التي تنهزم فيها الجيوش ، وما الرجل العابد إلا صاحب الغمرات مع الشيطان ، وكأنه يحتمل المكاره عن أمة كاملة بل عن البشرية كلها حيث كانت من الأرض ؛ فالناس يحسبونه قد تخلى من الدنيا ويظنون الترك أيسر شيء ، وما علموا أن الزهد لا يستقيم للزاهد حتى يجعل جسمه كأنه في نظام آخر غير نظام أعصابه ولا أشق من ذلك على النفس ؛ ومعجزة الزاهد أنه مكلف أن يخرج للناس أقوى القوة من المعاني التي هي عند الناس أضعف الضعف ؛ ولو أن ملكا عظيما تعب في جمع الدنيا وفتح الممالك حتى حيزَتْ له جوانب الأرض لكان عمله هذا هو الوجه الآخر لتعب الزاهد في مجاهدة هذه الدنيا وتركها

* * *

قال أحمد بن مسكين : وقصصتُ عليهم القصة فقلت : كان أبو عامر قبيصة بن عُقبة كثير الفكر في الشيطان يود لو رآه ونازله الكلامَ ، وكان يتدبر الأحاديث التي صح ورودُها فيه ويفسر معنى الشيطان بأنه الروحُ الحيُّ للخطأ على الأرض ؛ والخطأ يكون صواباً معولاً عن طريقته وجهته ، ولهذا كان إبليس في الأصل ملَكا من الملائكة وتحوّل عن طبيعته حين خلق آدم عليه السلام ، أي وجد في الكون روحُ الخطأ حين وجد فيه الروحُ الذي يخطىء . فلما هبُط آدم من الجنة وحُرِمها هو وزوجُه وذُريته كان إبليس لعنه الله هو معنى بقاء هذا الحرمان واستمراره على الدهر ، فكأن هذه الآدمية أخرجت من الجنة وأخرجت معها قوة لا تزال تصدُّها عنها ليضطربا في الكفاح ملياً من زمن هو عمرُ كل إنسان ، وهذا هو العدل الالهي ، لم يعرف آدم حق الجنة فعوقب ألا يأخذها إلا بحقها ، وأن يقاتل في سبيل الخير قوة الشر

وبات أبو عامر ذات ليلة يفكر في هذا ونحوه بعد أن فرغ من صلاته وقراءته ، ثم هوّم فكان بين اليقظة والنوم ، وذلك حين تكون العينُ نائمةً والعقل لا يزال منتبهاً ، فكأن العينَ متراجعةٌ تبصر من تحت أجفانها بصراً يشاركها فيه العقل . فرأى شيخُنا أبو عامر صورة ابليس جاءه في زيّ رجل زاهد حسن السَّمْت طيب الريح نظيف الهيئة ، وكاد يشتبّه عليه لولا أنه قد عرفه من عينيه فان عيني الكاذب تصدقان عنه ، وقد علم الله أن الكاذب آدميّ فقدَّر لجعل عينيه كالعلامات لمن خاض الفلاة

وظهر الشيطان زاهداً عابداً تقياً نقياً كأنه دين صحيح خلق بَشَراً فصرخ به أبو عامر : عليك لعنة الله ! أمعصية في ثوب الطاعة ؟

---

(١) داعبنا إبليس لعنه الله مداعبة ثقيلة في كتابة هذا المقال وسنقص للقراء حكايته إن شاء الله

(٢) توفي ابن شحاع هذا سنة ٢٤٤ وكان من حفاظ (ماخ)

(٣) الطنز الهزؤ والتهكم ولعل منه كلمه (بنظ) عند العامة

(٤) توفي سنة ٢١٥

قال ابليس : يا أبا عاصر ! أولم تقل المعصية إنها طاعة لم يقارفها أحد . وهل خلقت الشهوات فى نفس الانسان وغرزته إلا لتقريب هذه المعاصى من النفس ، وجعل كل منها طاعة لشىء ما ؛ فتقع المعصية بأنها طاعة لا بأنها معصية . أولا ترى يا أبا عاصر أن الحيلة محكمة فى الداخل من الجسم أكثر مما هى محكمة فى الخارج عنه ، وأنه لولا أن هذا الباطن بهذا المعنى وهذا العمل لما كان لظاهر الوجود كله فى الانسان معنى ولا عمل ؟

قال الشيخ : عليك لعنة الله ! فما أرى الموت قد خلق إلا ردا عليك أنت ليتبين الناس أنك الممتلئ الممتلئ ولكنك الفارغ الفارغ ؛ بل كل شهواتك سخرية بك ورد عليك ، فلا طعم للذة من لذاتك إلا وهى تموت ، وإنما تمام وجودها ساعة تنقضى ؛ ومتى قالت اللذة قد انتهيت ، فقد وصفت نفسها أبلغ الوصف

قال إبليس : يا أبا عاصر ولكن اللذة لا تموت حتى تلد ما يبقيها حية ، فهى تلد الحنين إليها وهو لا يسكن حتى يعود لذة تنقضى وتلد

قال الشيخ : معانى التراب ، معانى التراب ؛ كل نبتة فيها بذرتها . ولكن عليك لعنة الله لماذا حدثتنى فى هذه الصورة ؟

قال ابليس : لأنى لا ألبس إلا محبة القلب الآدمى ، ولولا ذلك لطردتنى القلوب كلها وبطل عملى فيها ؛ وهل عملى إلا التلبيس والتزوير ؟ أفتدرى يا أبا عاصر أنى لا أعترى الحيوان قط ؟

قال الشيخ : لأن الحيوان لا ينظر الى الشىء إلا نظرة واحدة هى نظره وفهمه معاً ، فلا محل للتزوير مع هذه النظرة الواحدة ؛ وصدق الله العظيم : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم » فأنت أيها الشيطان التزوير ، والتزوير موضعه الكذب . فمن لم يكذب فى الفكر ولا فى النظر ولا فى الفهم ولا فى الرجاء فليس لك عنده عمل

قال ابليس : يا أبا عاصر ! وهل ترى رحمك الله أعجب وأغرب وأدعى الى الهزء والسخرية من أن أعظم العقلاء الزهاد والعباد هو فى جملة معانيه حيوان ليس له إلا نظرة واحدة فى كل شىء ؟

قال الشيخ : عليك وعليك ؛ إن الحيوان شىء واحد فهو طبيعة مسخرة بنظامها ، ولكن الانسان أشياء متناقضة بطبيعتها ، فألوهيته أن يقر النظام بين هذه المتناقضات كأنما امتُحن فأعطىَ من جسمه كونا فيه عناصرُ الاضطراب و عناصر الاضطراب ثم قيل له دَبِّره

فضحك إبليس . قال الشيخ : مم ضحكت لعنك الله ؟

قال : ضحكت من أنك أعلمتنى حقيقة الابليسية ، فالزهاد الصالحون لأن يكونوا أعظم الأبالسة

قال الشيخ : عليك لعنة الله فما هى تلك الحقيقة التى زعمت

قال إبليس : والله يا أبا عاصر ما غلا انسان فى زعم التقو والفضيلة إلا كانت هذه هى الابليسية ؛ وسألتك يا أبا ع حقيقة الزهد والعبادة . فلا تقل انها ألوهية تقر النظام بين متناقضات الانسان ومتناقضات الطبيعة

قال الشيخ : وتسخر منى لعنك الله ؟ فمتى كنت تع الحقيقة والفضيلة ؟

قال إبليس : أولم أكن شيخ الملائكة ؟ فمن أجدرُ شيخ الملائكة أن يكون عالمها ومعلمها ؟

قال : عليك لعنة الله فما هى حقيقة الزهد والعبادة ؟

قال إبليس : حقيقتها يا أبا عاصر هى التى أعجزتنى فى نبيكم

قال الشيخ : صلى الله عليه وسلم فما هى ؟

قال إبليس : هى ثلاث بها نظام النفس ونظام العالم ونظ اللذات والشهوات : أن تكون لك تقوى ، ثم يكون لك ف من هذه التقوى ، ثم يكون لك نظر الى العالم من هذا الفكر ما اجتمعت هذه الثلاث فى إنسان إلا قهر الدنيا وقهر إبليس

فان كانت التقوى وحدها كتقوى أكثر الزهاد والرهبان فما أيسر أن أجعل النظر منها نظر الغفلة والجهل والبلا والفضائل الكاذبة ؛ وإن كان الفكر وحده كفكر العل والشعراء فما أهون أن أجعل النظر به نظر الزيغ والالحـ والبهيمية والرذائل الصريحة

قال الشيخ : صدق الله العظيم : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون »

قال إبليس : يا أبا عاصر ! ما يضرنى والله أن أفسر لك ما قارورة من الصبغ لا تصبغ البحر ، وأنا أعد الزهاد والعلما المصلحين فأضم فى الناس بجانب كل واحد منهم مئة ألف امرأ مفتونة ومائة ألف رجل فاسق ومائة ألف مخلوق ظالم ، فلو أملأ صبغت البحر بملء قارورة حمراء لما صبغت البحر الانسانى

الزاهد والمصلح ما دام المصلح شيئاً غير السيف ، وما دام الزاهد شيئاً غير الحاكم

قال الشيخ : لعنك الله من شيطان عارم ، فاذا وضعت المصلح بين مائة ألف فاسد فهل هذه إلا طريقة شيطانية لافساده ؟

قال إبليس : ومائة ألف امرأة فتانة مفتونة يا أبا عامر كل واحدة تحسب جسمها . . .

فصرخ الشيخ : أعْزُبْ عني عليك لعنة الله !

قال ابليس : ولكن الآية الآية يا أبا عامر . لقد لقيتُ المسيح وجرّبته وهو كان تفسيرها

قال الشيخ : عليه السلام ! وعليك أنت لعنة الله ! فكيف قال ؟ وكيف صنع ؟

قال إبليس : ألقيتُ به جائعاً في الصحراء لا يجد ما يطعمه ولا يظن أنه يجد ولا يرجو أن يظن ؛ ثم قلت له : إن كنت روحَ الله وكلمته كما تزعم فمر هذا الحجر ينقلب خبزاً . فكان تقيا فتذكر فاذا هو مبصر ، فقال : ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . فمثل هذا لو مات جوعاً لم يتحوّل ، لأن الموت إتمامُ حقيقته السامية فوق هذه الدنيا ، ولو مُلئت له الدنيا خبزاً وهو جائع لم يتحول ، لأنه يصرها من فوق الخبز إلى حقيقته السماوية ؛ فليس بالخبز وحده يحيا بل بمعان أخرى هي إشباعُ حقيقته السماوية التي لا شهوة لها

ثم ارتقيت به إلى ذروة جبل وأريته ممالك الخافقين كشفتها كلها لعينيه وقلت له : هذا كله لك إذا أنت سجدتَ لي . فكان متقيا فتذكر فاذا هو مبصر : أبصر حقيقة الخيال الذي جسّمتُه له وعلم أن الشيطان يعطي مثل معاني هذه الممالك في جرعة خمر ، كما يعطيها في ساعة لذة ، كما يعطيها في شفاء غيظ بالقتل والأذى ، ثم لا يبقى من كل ذلك باق غير الاثم ، ولا يصح منه صحيح إلا الحرام . ومن ملك الدنيا نفسها لم يبق لها إذا بقيت له ، فهي خيال في جرعة الحياة كما هي خيال في جرعة الخمر

يا أبا عامر ؛ إن هذا النظر الذي وراءه التذكر الذي وراءه التقوى التي وراءها الله ، هذا وحده هو القوة التي تتناول شهوات الدنيا فتصفيها أربع مرات حتى تعود بها إلى حقائقها الترابية الصغيرة التي آخرها القبر وآخر وجودها التلاشي

فالبصر الكاشف الذي يجرد الأشياء من سحرها الوهمي ، هذا هو كل السر .

* * *

قال الشيخ : لعنك الله فكيف مع هذا تفتتن المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر هذا سؤال شيطاني . . . تريد ويحك أن تحتال على الشيطان ؟ ولكن ما يضرني أن أفسرها لك . ليس الايمان هو الاعتقاد ولا العمل ، ولو كان من هذين لما شقّ على أحد واصلحت الدنيا وأهلها . إنما الايمان وضعُ يقين خفيّ يكون مع الغريزة في مقرها ، ويصلح أن يكون في مقرها لتصدر عنه أعمالُ الغريزة . وهذا اليقين لا يصلح كذلك إلا إذا كان يقيناً ثابتاً بما هو أكبر من الدنيا فيرجع إليه الانسان فيتذكر فيُبصر . هنالك ميراث من الآخرة للمؤمن ، فاليقين بهذا الميراث هو سر الايمان

والعمل الشيطاني لا يكون إلا في إفساد هذا اليقين ومعارضة الخيال المظلم الذي فيه بالحقائق الصغيرة التي تظهر للمفتون عظيمة كما تُنشب نار أكبر من قرص الشمس ثم يقال للأبله انظر بعينيك فيصدق أنها أكبر من الشمس

ومتى صغر هذا اليقين وكانت الحقائق الدنيوية أكبر منه في النفس ، فأيسر أسباب الحياة حينئذ يفسد المتقدّ ويسقط الفضيلة ، وبدرهم واحد يوجد اللص حينئذ

أما إذا ثبت اليقين فالشيطان مع الانسان يصغر ثم يصغر ، ويعجز ثم يعجز ، حتى ليرجع مثل الدرهم إذا طمع الطامع أن يجعل الرجل الغني الكثير المال لصاً من اللصوص بهذا الدرهم

قال الشيخ : لعنك الله ! فان لم تستطع إفساد هذا اليقين فكيف تصنع في فتنة المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر إني لم أستطع إفساد اليقين زدته يقيناً فيفسد ، واستحسان الرجل لأعماله السامية قد يكون هو أول أعماله السافلة . وبأي عجيب يكون الشيطان شيطاناً إلا بمثل هذا ؟

* * *

قال أحمد بن مسكين : وغضب الشيخ فمد يده فأخذ فيها عنق إبليس وقد رآه دقيقاً ، ثم عصره عصراً شديداً يريد خنقه فقهقه الشيطان ساخراً منه . وينتبه الشيخ فاذا هو يشد بيده اليمنى على يده اليسرى ... ...

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي